من أخلاق الأنبياء عليهم السلام [١]

الجمعة ٢١/ ١/ ١٤٢٨هـ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ... أمَّا بَعْدُ:

فَمَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ وَفَاضَلَ بَيْنَهُمْ فِي أَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ؛ فَغَنِيٌّ وَفَقِيرٌ، وَشَرِيفٌ وَوَضِيعٌ، وَسَلِيمٌ وَعِلِيلٌ، وَشَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.

وَهَذَا التَّغَايُرُ بَيْنَ النَّاسِ فِيهِ حِكَمٌ بَالِغَةٌ وَمَقَاصِدُ سَامِيَةٌ.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

مَعَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ وَتَغَايُرِ شُؤُونِهِمْ نَسَبًا وَحَسَبًا وَمَالًا... إِلَّا أَنَّ الرِّفْعَةَ وَالسُّمُوَّ وَالشَّرَفَ الحَقِيقِيَّ إِنَّمَا يَكُونُ بَحَسْبِ قُرْبِهِمْ مِن رَبِّهِمْ وَتَقْوَاهُمْ وَطَاعَتِهِمْ لَهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. أَمَّا الفَخْرُ بِالأَمْوَالِ وَالأَنْسَابِ فَتَكَبُّرٌ وَتَضْيِيعٌ لِلتَّقْوَى وَضَرَرٌ وَوَبَالٌ عَلَى أَصْحَابِهِ: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

وَإِذَا كَانَ الْمُتَّقُونَ لله هُمْ أَكْرَمَ النَّاسِ فَإِنَّ الْمُتَّقِينَ أَنْفُسَهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي التَّقْوَى، وَمِنْ ثَمَّ فِي الرِّفْعَةِ وَالمَنْزِلَةِ؛ إِلَّا أَنَّ ثُلَّةً مِنَ الْمُتَّقِينَ قَدْ بَلَغُوا مَنْزِلَةً مِنَ التَّقْوَى لَمْ يَصِلْهَا أَحَدٌ قَبْلَهُمْ، وَلَنْ يَصِلَهَا أَحَدٌ بَعْدَهُمْ، تِلْكُمُ الثُّلَّةُ الْمُبَارَكَةُ الطَّيِّبَةُ هُمْ أَنْبِيَاءُ الله تَعَالَى وَرُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

اصْطَفَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَخَصَّهُمْ بِخَصَائِصَ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَكَانُوا فِي الذِّرْوَةِ العُلْيَا مِنَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافِ وَالغِنَى:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحجّ: ٧٥].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٦-٤٧].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

نَصَرَهُمُ اللهُ وَنَصَرَ مَنْ وَالَاهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

وَعَاقَبَ اللهُ مَنْ عَادَاهُمْ وَسَخِرَ مِنْهُمْ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠].

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

وَمِنْ لَوَازِمِ مَنْزِلَةِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ أَدَبًا وَأَعْظَمُهُمْ وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَالنَّاظِرُ فِي سِيَرِ الأَنْبِيَاءِ وَقَصَصِهِمْ يَرَى مِنْ كَمَالِ الأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِهَا وَسُمُوِّ النُّفُوسِ وَكَرَمِهَا وَطِيبِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَجَمِيلِهَا مَا يَعْجَبُ مِنْهُ الوَاصِفُونَ.

وَأَعْظَمُ الأَنْبِيَاءِ فِي هَذَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ وَقَدْ زَكَّاهُ رَبُّهُ بِذَلِكَ وَشَهِدَ لَهُ بِهِ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩].

أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: «وَتَعْظِيمُ العُظَمَاءِ لِلشَّيْءِ يَدُلُّ عَلَى تَوَغُّلِهِ فِي العَظَمَةِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ المُعَظِّمُ هُوَ أَعْظَمُ العُظَمَاءِ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى»(١).

مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ:

وَأَخْلَاقُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهَا القُدْوَةُ لِلنَّاسِ عُمُومًا وَلِأَهْلِ العِلْمِ خُصُوصًا؛ فَالأَنْبِيَاءُ هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ وَأَتْقَى النَّاسِ لله، وَفِي النَّظَرِ فِي أَخْلَاقِهِمْ ثَمَرَاتٌ كَثِيرَةٌ وَفَضَائِلُ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ: زِيَادَةٌ فِي الإِيمَانِ، وَبُعْدٌ عَنْ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ، وَأُنْمُوذَجٌ فِي حُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الثَّمَرَاتِ.

فَحَرِيٌّ بِنَا ـ مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ ـ أَنْ نَحْرِصَ عَلَى النَّظَرِ فِي قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ لِنَقْتَدِيَ بِأَخْلَاقِهِمْ وَآدَابِهِمْ.

---

(١) «بداية السول في تعظيم الرسول ﷺ» للعزّ بن عبدالسلام (ص٥٨).

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

وَمِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: أَنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ خَشْيَةً لِرَبِّهِمْ وَأَسْرَعُهُمْ لُزُومًا لَطَرِيقَةِ مَرْضَاتِهِ.

فَهَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا وَعَاتَبَهُ رَبُّهُ عَلَى ذَلِكَ سَارَعَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِذَنْبِهِ وَدَعَا رَبَّهُ رَغْبًا وَرَهَبًا: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

وَأَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وَأَمَّا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وَأَمَّا ذُو النُّونِ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦].

وَلَمَّا وَكَزَ الرَّجُلَ فَمَاتَ مِنْ وَكْزَتِهِ قَالَ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَفِي شَأْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ:

وَمِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: أَنَّهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ أَدَبًا مَعَ الله تَعَالَى.

وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ: مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَتَبَيَّنُ عَظِيمُ أَدَبِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَبِّهِ تَعَالَى، فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَرَّأَ مِنْ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَقٍّ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَدَعْوَةُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا قَائِمَةٌ عَلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ لله تَعَالَى وَالبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ؟ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَأَدَّبَ مَعَ رَبِّهِ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. قَالَ الإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «هَذَا تَوْقِيفٌ لِلتَّأَدُّبِ فِي الجَوَابِ الكَامِلِ».